ويعود كما بدأ

لخضر شكير - الجزائر

يهل هلال رمضان مبكرا هذا العام، يباغتني في المكان الذي تركني فيه آخر مرة يلتطع اثني عشر شهرا من عمري القصير.... بزاحم أشغالي المتراكمة، لم يكن عليه أن يفاجئني ولما أوضب له نفسي بعد، في الحقيقة لم يكن علي أن أقعد في المكان الذي تركني فيه. الذنب ليس ذنبك يا رمضان، تعود كل عام والعمر يمضي لا يعود...

يكبر الهلال، يزداد حجمه، يتعاظم نوره، في الليلة الرابعة بدا حزينا كحزني الذي رافقني من سنوات، وازداد هذا العام درجة، في الليالي الأولى لرمضان تأتيني الكوابيس، تربكني في الليل والنهار، تخزني، توقظ لديّ مشاعر العودة، تنبئني بحدوث شيء غير محبوب... جدي لأمي أراه في المنام يحمل فوق رأسه سقفا من سقوف البيت العتيق، يخر عليه السقف، تتكسر رجله، يستحيل جدي إلى كومة خامدة، يأتيني الكابوس الثاني في الليلة التي بعدها، أراني أصلي على جدي... أيها الكابوس المرعب إليك عني، ليس عليك أن تقتل جدي... عزمت على المضي إلى جدي، أنبأتني أمي بالخبر في تلك الليلة، قالت: إن أباها ليس بخير، وقد ازداد عليه الداء وطأة، ولم يعد صاحب التسعين خريفا قادرا على الحياة، قد يصبح غائبا في لحظات، قالت أمي باختصار: جدك ليس بخير، ثم أغلقت السماعة.

بت تلك الليلة أقلب وجهي في السماء، الهلال لم يعد صغيرا، علي أن أرتب مناعي، قلت لزملائي: غدا يوم الرحيل.

في الصباح الباكر حزمت حقيبتي، أغراضي لا تزال مبعثرة، ليس علي تفقد كل الزوايا، قد تكون للعودة بقية، المهم عندي الآن أن ألحق بجدي على قيد الحياة قبل أن يكون في قيد الممات... أصل البيت في بضع ساعات، تستقبلني أمي على غير العادة، غادرتها بشاشتها المعهودة، سرقت منها الابتسامة،

اغتصبت من علي محياها الفرحة. بدت لي عجوزا لأول مرة. أين شبابك يا أمي (حدثت نفسي). قالت أمي: عليك أن تزور جدك. وفي أقرب الآجال إن كانت هناك حيلة وقد أحسست أنها تأمرني. انحنيت أمام أمرها. وذهبت أطلب بيت جدي.

باغتّ جدي – على غير العادة – بعد الإفطار. سلمت عليه فرد السلام. انحنيت أقبله. لم يكن سوى أضلاع وفقرات وقد ازداد شحوبا. حدثته إن كان عرفني – وقد كان يعرفني كلما دخلت عنده بصوتي إن لم يكن بصورتي – كان جدي يحدثني متوهما أنه قد عرفني. موهما إياي أنه كذلك. يواصل الحديث. يتقطع حديثه. لا يصل إلي كاملا. لم يعد الرجل يفصح في الكلام. أفهم بعض الكلمات ويضيع مني الباقي. أحاول استجماع السياق حتى أفهم المقصود. تخونه العبارة... يذهب جدي بعيدا. يحدثني عن اسم آخر – متوهما أنه يتحدثني –. يذكر قصة لذلك الاسم على أنه يعنيني. يواصل كلامه متقطعا... أستمر في الإنصات. أنحني مرة نحوه وأعود لأستوي قاعدا مرة أخرى. يساعدني خالي في إفهامي بعض العبارات. وزوجة خالي من هناك ترقب الموقف. تعرف جيدا حاله المويصة من أسابيع... قالت زوجة خالي: لم يتحرك من فراشه مذ سقط على رجله فانكسرت. لم يكن السقوط قويا. عظامه الرخوة سمحت بالانكسار...

لازال صوت جدي يصلني رديئا... يتحدث عن ذكريات الماضي. يذكر أماكن وأشخاصا كان يعرفهم من تسعين عاما. يحاول استجماع الذاكرة المشوهة. عبثا يحاول. يعود للحديث معي وعن الاسم الذي ظن أنه يعنيني. أنصت لكلامه. ألتفت إلى خالي مرة وإلى جدي أخرى. أحاول التأكد من أنه عرفني... يخيب ظني. لم يعد جدي يعرفني... لم أمتلك نفسي. أضع يدي على خدي. تنحدر دموعي. وخالي يجتبني يلوذ بالصمت... أتذكر في تلك اللحظات رحلة من رحلاتي مع جدي... كان ذلك من عشرين عاما أو يزيد. لما اصطحبني جدي وعمري بضع سنوات إلى بادية في جبل بعيد لنحضر كبش العيد. كان جدي يمشي وأنا أتيمه والنجوم لم تغادر مكانها بعد. كان الجبل عاليا والمسير طويلا. كنت أسأل جدي بين الفينة والأخرى: هل وصلنا يا جدي؟ يجيبني جدي: لم يبق كثير يا ولدي...

أعود إلى جدي بعد ربع قرن. أراه صغيرا... يعود كما بدأ. لا يفصح في الكلام. ينكر حفيده الذي كان يحبه. تخونه الذاكرة مرة. ويخونه البصر مرة. وينعقد لسانه في الأخرى. يتألم كثيرا. فيصرخ حينا ويكتمه حينا. ويغضب على ابنه في الأخرى... يستدير الزمان كما بدأ. يعود جدي صغيرا... صغيرا كما بدأ... ■

غصن العمر

مؤيد حجازي - سورية

هل يا تُرى في كل عام تُورِقُ ... يا غصنَ عُمري أم تُراكَ ستُخلَقُ

أكفاكَ ما أورقتَ في عُمرٍ مضى ... فبدأتَ تُسقِطُ ما حملتَ وتُحرِقُ

أم أنَّ ربي قدَّستْ أسماؤُهُ ... ما زال يمنحُكَ الحياةَ ويُغدِقُ

سهمُ المنيَّةِ كلَّ غُصنٍ طيِّبٍ ... مهما تباهى في العُلوِّ سيُحرِقُ